المختار من كنوز السنة

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: «قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم» أخرجه مسلمٌ (١).

«عن سفيان بن عبد الله الثقفي»: الطائفي، صحابي ابن صحابي. أسلم مع وفد (ثقيف) بعد غزوة حنين، وكان واليًا لِعُمرَ على جباية الزكاة من الطائف، بعد أن نقل عثمان بن أبي العاص منها إلى البحرين. له في مسلمٍ هذا الحديث الواحد.

أ.د/ عبد الله دراز(*)

«قل لي في الإسلام»: أي في تحديد حقيقته الشرعية.

«قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك»: يريد قولًا جامعًا واضحًا يُستغنى به عن العود إلى السؤال. فالضمير في (عنه) للإسلام. والرابط الذي يعود إلى القول مُقدرٌ، أي: بسبب ذلك القول. فأجابه من أُوتي جوامع الكلم بكلمة موجزة جامعةٍ، قال ﷺ:

«قل آمنت بالله ثم استقم»: فأشار بقوله: «قل آمنت بالله» إلى أصل الدين وأساسه وهو الإيمان بالله والإقرار بذلك. وأشار بقوله: «ثم استقم» إلى ما يتبع ذلك من طاعة الله والعمل بأوامره والوقوف عند حدوده. فهو كالإحسان بعد الإسلام في قوله تعالى:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

(البقرة: ١١٢)

وكالسعي مع الإيمان في قوله:

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾

(الإسراء: ١٩)

والحديث في جملته مقتبسٌ من قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(الأحقاف: ١٣)

وكلمة «الاستقامة» وإن كانت لا تتناول هنا بظاهرها إلا قسم الفروع. إلا أنها إذا أُطلقت كما في قوله تعالى:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾

(هود: ١١٢)

(*) نال عضوية كبار العلماء ١٩٤٩م، وتوفي عام ١٩٥٨م.

(١) جامع الأصول: ١/ ٢٣٤ – الكتاب الأول– في الإيمان والإسلام– في حقيقتهما وأركانهما– الحديث رقم (١٧). وتيسير الوصول: ١/ ١٨– وصحيح مسلم: ١/ ٦٥–١– كتاب الإيمان– ١٣– باب جامع أوصاف الإسلام– الحديث رقم (٦٢) – (٣٨).

استوعبت الأصول والفروع، فلا تغادر وراءها عملًا من أعمال الجوارح ولا حالًا من أحوال القلوب، ولا نظرًا من أنظار العقيدة إلا أتت عليه، إذ الاستقامة مأخوذةٌ من القيام وهو الاعتدال وعدم الاعوجاج تقول: «قام الأمر» أي: اعتدل. فمعناها سلوك الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وهو ما ليس بإفراط ولا تفريط. وهذا كما يكون في الأعمال يكون في الأخلاق ويكون في الآراء.

فالاعتدال في الرأي والاعتقاد أن يكون المرء في تفكيره بين الْخُبْث وَالْبَلَه: فلا يُكذِّبُ بعد البرهان كأهل الإلحاد، ولا يُصدق بغير برهان كأهل الخرافات الدينية.

والاعتدال في الأخلاق أن يكون في شهوته بين الجمود والشره، وفي غضبه بين الجُبن والتهور، فيكون عالي الهمة في تواضع، ذا حمية في تثبت، قنوعًا في سخاء. وهلم جرا.

والاعتدال في الأعمال ينبني على ذلك، فهو ألا تُنيل نفسك كل مقتضى شهوتها وغضبها حتى تكون من المسرفين الذين لا يبالون باقتحام ظاهر الإثم وباطنه، ولا تُحجم بها عن كل ما طمحت إليه حتى تكون من الرهبانيين الذين ينسون نصيبهم من الدنيا فيضيعون حقوق أنفسهم وحقوق الناس عليهم، بل تأخذ من الطرفين بقدر ما يستحسنه الشرع والعقل.

فكل ما لم يصل إلى هذه الأطراف يُسمى توسطًا واعتدالًا. وهذه هي استقامة العوام.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)

والتوسط الحقيقي هو الأخذ بأوسط الوسط وأعدله وهو ما يكون بعده عن الطرفين بنسبة واحدة فلا يميل إلى أحدهما ميلًا ما. وهذه استقامة الخواص، وإنها لعسيرةٌ إلا على النبيين والصديقين. وليس العسر في سلوكها والتزامها فحسب، بل إن معرفة الوسط الحقيقي الذي ينبغي سلوكه من أشد الأمور عُسرًا.

ذلك أن بين الطرفين مدًى واسعًا تضل فيه المقاييس وتطيشُ فيه الموازين، والحدود مُتاخمةٌ للأوساط مُلاصقةٌ لها، فيصعبُ ضبط هذه الأبعاد وتحديدها إلا على من هدى الله. ومن هنا ما نراه من اختلاف العقلاء في تقدير الأمور وتحديد الحسن والقبيح والخير والشر والصواب والخطأ تحديدًا تطبيقيًا عمليًا. فقد يحسبُ المرء أنه على الجادة وهو مائلٌ كل الميل إلى أحد الجانبين، كراكب البحر يظن نفسه في وسطه ما دام لا يرى أحد الشاطئين. بل قد يصل إلى الحد وهو يظن أنه إنما قَرُبَ منه ولم يصل إليه وأنه لا يزال فيما يُسمى بالوسط المطلق. كما أنه قد يكون في الوسط فإذا نظرت إليه من أحد الطرفين ظننته في الطرف الآخر.

وهكذا يُخطئ كثيرٌ من الناس في تسمية الأشياء، حتى قد يُسمونها بأسماء نقائضها: أليس فينا من يُسمي التهور شجاعةً، والحلم ضعفًا، والتبذير كرمًا. وفينا من يعكس فيُسمي الجُبن حزمًا، والشح اقتصادًا، والمَلَقَ مُداراةً، والبلادة أناةً، والمجون ظرفًا، والوقاحة صراحة. هذا في الأعمال والأخلاق.

وكذلك نقول في الآراء والاعتقادات، فهؤلاء علماء الكلام، وهم أهل البحث الدقيق في الأمور النظرية، نرى كثيرًا منهم يميلون

هذا الميل إلى جانب الإفراط أو التفريط ! ففي باب الإلهيات منهم الغالون في تأويل الظواهر ذهابًا إلى تنزيه الخالق، حتى يُعطلوا بعض صفاته، ومنهم الغالون في الأخذ بتلك الظواهر ذهابًا إلى الإيمان بكل ما أُنزل، حتى يُشبهوه بمخلوقاته. وفي باب النبوات منهم من يُطري الأنبياء إلى درجة التنزيه والتقديس، ومنهم من يضعهم في مستوى الناس حتى في الهنات والنقائص. وفي باب السمعيات منهم وَعْدِيٌّ صرفٌ (كالمرجئة) ومنهم وعيديٌّ صرف (كالخوارج).

فتبين بهذا كله صعوبة أمر الاستقامة عامِّها وخاصِّها، وأن كل ما يستطيعه المكلف هو بذل الجهد ومعالجة رد النفس إلى الجادة كلما حادت عنها قريبًا أو بعيدًا. ولا يتم مطلوبه من ذلك إلا بتوفيقه تعالى ومعونته.

وهذا هو السر في زيادة السين والتاء في كلمة (الاستقامة) إيماءً إلى أن الواجب هو الطلب والمحاولة. وهو السر في التعبير بكلمة (ثم) فإنها مع دلالتها على الترتيب الزماني لأن العلم سابقٌ على العمل، تُومئُ أيضًا إلى التراخي الرتبي فإن الترقي من أصل الإيمان إلى مرتبة الاستقامة انتقالٌ من الأخف إلى الأشق. وأخيرًا هذا هو السر في مطالبة المؤمن بأن يقف بين يدي مولاه خمس مرات في كل يومٍ يناديه بلسان الضراعة والإلحاح قائلًا:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

(الفاتحة: ٦)

أخرجه مُسلمٌ: في باب جامع أوصاف الإسلام من كتاب الإيمان. أقولُ: وأخرجه النسائي والترمذي أيضًا. وقال: حسنٌ صحيحٌ.

❊ ❊ ❊